الفصل الأول

عصر الجاحظ

١ ــ البيئة السياسية

تقوضت أركان الدولة الأموية فى الشام بعد أن اشتعلت نيران الثورة العباسية فى العراق وخراسان يضرمها أبو مسلم الخراسانى وقائده قحطبة بن شبيب الطائى[١]، ومشى العباسيون يرفعون الراية السوداء من مكان إلى مكان والنصر حليفهم ، وإذا أبو العباس فى مسجد الكوفة ينادى بنفسه خليفة ، وإذا الزاب الأعلى[٢] يشهد حطمة مروان الثانى الخليفة الأموى ، وإذا بلاد الشام كلها تضج بجيوش الثائرين ، وإذا أبو فطرس[٣] يشهد استئصال شأفة الأمويين ما عدا عبد الرحمن ، صقر قريش ، مؤسس الدولة الأموية الأندلسية .

اتخذ أبو العباس السفاح (٧٤٩ ــ ٧٥٤ م / ١٣٢ ــ ١٣٦ هـ) الهاشمية قرب الأنبار قاعدة له ، ولما قام بعده أبو جعفر المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥ م / ١٣٦ ــ ١٥٨ هـ) وامتدت على يده حدود الإمبراطورية العباسية حتى بلغت كشمير فى الهند ، فكر فى عاصمة لمملكته تكون بعيدة عن الكوفة موطن الثورة والعصيان ، وقريبة من فارس ، تنفتح أبوابها على عوالم من الثقافات

---

(١) هو أحد الدعاة الاثنى عشر الذين بثوا الدعوة سراً للعباسيين .

(٢) الزاب الأعلى : ميدان المعركة الفاصلة التى جرت فى بلاد الموصل بين مروان الثانى وقواده وبين العباسيين .

(٣) أبو فطرس : نهر بفلسطين ؛ كان مروان الثانى قد عرج به ، بعد هزيمته فى الموصل فى طريقه إلى مصر .

والمدنيات . فوقع اختياره على قرية مسيحية قائمة على ضفة دجلة الغربية اسمها بغداد . فأمر الخليفة أن تحول القرية إلى مدينة ، وأمر بالمهندسين والصنّاع وأرباب العمل ، فإذا قصور الأكاسرة فى المدائن تنقل حجارتها وأنقاضها لتقوم بها قصور بغداد ، وإذا المدينة الجديدة ترتفع على شكل مستدير فى وسطها قصر الخليفة المدعو باب الذهب أو القبة الخضراء ، وإذا المدينة فارسية فى مواد بنائها ، فارسية فى هندستها ، يصبح فيها قصر الخليفة قلباً تتجه إليه كل الآمال والأعمال ، وتحيط به الجلالة والوقار ، ويقوم بينه وبين الشعب جيش من الموظفين والحُجّاب على أسلوب فارسى يبتعد عن الشعبية العربية والبساطة العربية . وارتفعت إلى جنب قصر الخليفة ، قصور فارسية للبرامكة وزراء الدولة ومستشاريها .

والعباسيون أول من اتخذ الوزراء عن الفرس ، وقد جعلوا فى يدهم مقاليد أمور الدولة ، وعوّلوا عليهم فى أكثر الأحوال ، وجعلوا الوزارة وزارتين : وزارة تفويض تخوّل صاحبها سلطان تدبير الأمور برأيه ، ووزارة تنفيذ ينفّذ صاحبها ما يراه الخليفة ، ويكون واسطة بين الخليفة والشعب يُمضى فيه أمر الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش وما إلى ذلك .

وهكذا حاكى العباسيون القياصرة والأكاسرة فى تنظيم دولتهم ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم فى مباشرة الأعمال ، ففرّعوا المناصب ، وزادوا على الوزراء من يراقب تصرف العمال[1] فى الأمصار وقلّدوه ديوان البريد ، ومن يقوم بختم الرسائل وتسجيلها وقلّدوه ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر فى ضياعهم وأملاكهم وقلّدوه ديوان الضياع ، ومن ينظر فى حسابات حاشيتهم وخدامهم وقلدوه ديوان الخاص ، ومن ينصرف إلى ضرب النقود والقيام بالطراز وسلّموا إليه دار الضرب وديوان الطراز ، وأنشأوا ديوان

---

(١) العامل : الرئيس والوالى والحاكم .

العزيز ، وهو مجلس الخليفة يرأسه الوزير الأكبر ، وديوان الجيش فى مجلسين أحدهما للتقرير والآخر للمقابلة ، وديوان بيت المال للإشراف على الواردات والصادات ، وديوان الجهبذة[١] ، للإشراف على مصالح أهل الذمة[٢] ، إلى غير ذلك من الدواوين .

أما العمال فكان العباسيون يقيمونهم على الأقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان ، ومن أشهرهم جعفر بن يحيى البرمكى الذى ولاه الرشيد المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ، وأخوه الفضل بن يحيى الذى تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك فى جندهم ، فكان فى الجيش فرقة خراسانية ، وكان فى الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أى الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالا ، وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر الفوضى فى البلاد .

ولم تخلُ البلاد ، فى عهد بنى العباس ، من حروب وفتن . أما فى الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية[٣] مؤيدى أبى مسلم الخراسانى ، والزنادقة فى العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخُرَّمِيَّة[٤] مع بابك ، وغيرهم

---

(١) الجهبذ بفتح الجيم والباء والجهبذ بكسر الجيم والباء لغة : هو الناقد العارف .

(٢) الذمة : الأمان والعهد . والذى : الذى أعطى الذمه أى الأمان فأعطى الجزية .

(٣) « الراوندية » : مذهب أتباع ابن الراوندى كان معتزلياً ثم أصبح من الروافض ، وله كتاب فى فضيحة المعتزلة وآخر فى الطعن على نبى المسلمين .

(٤) « الخرمية » : مذهب أتباع بابك الخرمى و « خرمة » مدينة فى أذربيجان .
ظهر بابك سنة ٢٠١ هـ وملك الجبل عشرين عاماً فى خلافة المعتصم إلى أن قبض عليه وقتل سنة ٢٢٣ هـ وكان يدعو إلى الإباحية . ويسمى حصنه « البذ » وفى ذلك يقول أبو تمام من قصيدة يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى :

رمى الله منه بابكاً وجيوشه ... بقاصمة الأصلاب فى كل مشهد
بأسمح من صوب الغمام سماحة ... وأشجع من صرف الزمان وأنجد
فتى يوم بذ الخرمية لم يكن ... بهيابة نكس ولا بمرد

من الذين قاموا فى وجه الأمن والسلام ؛ وأما فى الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتى ، وهى الحملات والغزوات فى الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر فى ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

تلك خلاصة الحالة السياسية فى البلاد العربية فى عهد الجاحظ ، فقد قامت الدولة العباسية فى أول عهدها على القوة واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ، ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس فى صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد ، تحول وجه الدولة ، عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن ، كما أدخلوا طرائق الفرس فى تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونُظم الحكم . فتحولت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، وانفتحت على الجديد والاستفادة منه ، ونشأت من ثم النزعة إلى التجديد ، وعلت المناداة بمذهب « التخيُّر » أى تخير أحسن ما فى الحضارات القديمة غير العربية ، وتوسيع الصدر لها والعمل بها .

٢ ـ البيئة الاجتماعية

تعدَّدت عناصر الدولة العباسية فى امتداد أطرافها من المغرب إلى مصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر ، واشتد الاختلاف فى ميزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها ، كما اشتد التمازج فيما بينها . فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية تنزع نزعة العروبة الخالصة ، بل قويت فيها الشعوبية

وحركة التحرر من الأخلاق العربية ، فجرَّ التمازج انحطاطاً فى الأخلاق .

وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جداً مما فسح لها مجالا واسعاً فى الترف . أما أموال الدولة فكانت فى عهد ازدهار الخلافة تؤلف ثروة طائلة إلا أنها بعد المعتصم ، أصبحت بيد الأجناد الغرباء والوزراء والعمال يجمعونها بطرق شتى ويسيئون بذلك إلى الدولة والشعب . وأما أموال الرعية فقد توافرت فى المدن حيث عاش الناس فى رخاء وسعة ، بعد إذ اهتمت الدولة بالزراعة وشقت لها الأقنية للرىّ ، وعززت الصناعة ولا سيما صناعة النسيج ، واستخرجت المعادن من مناجم فارس .

وكان من الترف والفراغ أن شاع اللهو[١] فى البلاد ومال الناس إلى الغناء والرقص والتفنن فى الملبس ، كما مالوا إلى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد . والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء ، ولذا أولع الناس بتربية البزاة وكلاب الصيد وما إلى ذلك .

وكان من الترف والفراغ أن شاع التسرى ، وتعاطى الناس المسكرات سراً وعلناً ، وعاقر[٢] الخمرة حتى بعض الخلفاء . وكانت تعقد لمعاقرة الخمرة والغناء حلقات أنس تُسمَّى مجالس الشراب .

وتوافر الطلب على العلماء والشعراء[٣] والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماء لهم .

وانتشرت فى البلاد تجارة الرقيق ، وكان فى بغداد شارع يسمى « شارع

---

(١) طالع المنتخبات ص ٦٩ — ٧٠ .
(٢) طالع المنتخبات ص ٧٠ .
(٣) طالع المنتخبات ص ٦٦ — ٦٩ .

دار الرقيق » . وكان الأرقّاء ، ولا سيما الجوارى ، أنواعاً مختلفة ، فهنالك السود من السودان وجنوبى الجزيرة العربية وشمالى إفريقية ، وهنالك البيض من أتراك وصقالبة وغيرهم . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخّاسين[١] بألوان الحمام ، فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض . وشبه الزنج بالحمام الأسود .

واشتهر من الأرقاء الغلمان يلبسون الحلل الجميلة ويتزينون ويتعطرون كالنساء ، والغُلاميات الحسان يقصصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان ، وقد تغزل الشعراء بكلا الفريقين .

وقد عُنى العباسيون بتعليم الجوارى وتلقينهن الغناء[٢] فكُنّ من أشد العوامل فى نشر تلك الصناعة ، كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفنى ، وعلى إشعار الناس بالظرف وضروب التفنن فى المأكل والملبس والأزياء المختلفة .

وقامت ، إلى جنب الترف والفساد ، حركة استياء تنعى على العهد فسقه ، وتشدد النكير على المفسدين . وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدهم بالمال كما أمد غيرهم ؛ بل قامت حركة زهد تحتقر الفانيات فى سبيل الباقيات ، وتستنكف مما وصلت إليه الأخلاق من الانحطاط ، ومما شاع من فنون الظلم والبغى والفجور .

وإذا نظرنا إلى ذلك العهد من الوجهة الدينية تجلى لنا أن النزعة السائدة هى الحرية ، ولاسيما أنه الفلسفة اليونانية ، كانت قد هبت ريحها فارتفع معها لواء العقل والمنطق فى الأقطار[٣] ، وكانت الدولة قد ضمت إليها من الشعوب ما اختلفت أجناسهم وديانتهم من مسلمين متعددى الفرق ، ونصارى مختلفى

---

(١) النخاس : بياع الرقيق . والنخاسة : بيع الرقيق .
(٢) طالع المنتخبات ص ٦٩ .
(٣) طالع المنتخبات ص ٥٤ — ٥٨ .

النزعات، ومن يهود وصابئة[١] وزراد شتيين[٢] ومانويين[٣] متباينى المذاهب[٤].

وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية لذلك العهد، بل أشهرها على الإطلاق وأشدها تأثيراً فى التحرر الفكرى. وظهرت فى أوائل القرن الثامن للميلاد فى مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصرى ثم انشقت عنه، وكان ذلك على يد واصل بن عطاء (٦٩٩ — ٧٤٨ م) وعمرو بن عبيد (٦٩٩ — ٧٦١ م). وقد تأثرت المعتزلة باللاهوت المسيحى تأثراً جلياً[٥] وكان ليوحنا الدمشقى ابن سرجون (٧٣٠ م)، أثر واسع فيها. وانصرفت المعتزلة إلى الدفاع عن العقائد الإسلامية دفاعاً شديداً، ووضع أصحابها أكثر كتبهم للرد على الرافضة[٦] والجهمية[٧] الجبرية والثنوية[٨] وسائر المجوس. وقد ذكرت امرأة واصل بن عطاء

(١) «الصابئة» هم الذين تركوا التوحيد إلى عبادة الأصنام وقالوا إذا نحتاج فى معرفة الله إلى متوسطات إما روحانية وهى الكواكب وإما جسمانية وهم بشر يأكلون ويشربون. وانتشرت الصابئة عند الأشوريين والبابليين.

(٢) «الزرادشتيون»: أتباع زرادشت ظهر بفارس فى القرن السادس قبل الميلاد، ويذهب إلى أن أصل العالم المبدآن المتضادان: يزدان (النور) وأهرمن (الظلمة) ولن يزالا فى صراع حتى يتغلب الخير على الشر، وفلسفة زرادشت مدونة فى كتاب يسمى «زندافستا».

(٣) «المانويون»: أصحاب مانى بن فاتك (القرن الثالث الميلادى) ظهر فى زمان سابور بن أردشير، أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية، ويذهب إلى أن أصل العالم النور والظلمة امتزجا بالخبط والاتفاق، وفرض على أتباعه العشر فى الأموال وإقامة الصلاة وترك الكذب والسرقة والقتل والزنا.

(٤) طالع المنتخبات ص ٦٢ — ٦٦.

(٥) طالع كتاب «المعتزلة» لزهدى حسن جار الله ص ٢٣ — ٣٢.

(٦) «الرافضة»: عدة فرق من غلاة الشيعة يجمعهم تكفيرهم أبا بكر وعمر، وسموا كذلك لأن أنصار زيد بن على بن الحسين سألوه فى أبى بكر وعمر فقال: «لا أقول فيهما إلا خيراً وإنما خرجت انتقاماً لمقتل جدى الحسين». فانصرفوا عنه فقال لهم: رفضتمونى. ومعظم فرقهم من المشبهة والمجسمة مثل هشام بن الحكم.

(٧) «الجهمية»: مذهب أتباع الجهم بن صفوان ويقول بالجبر ونفى اختيار العباد لأفعالهم.

(٨) «الثنوية»: مذهب القائلين بمبدأين أزليين هما النور والظلمة.

أن زوجها كان ، إذا جنّه الليل، يصفّ قدميه يصلى، ولوح ودواة موضوعان أمامه ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد فى صلاته . قال عمرو بن عبيد : « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدّهرية[١] والمرجئة[٢] والرد عليهم منه » . ولم يكتف واصل بالرد على المخالفين وهو قابع فى بيته بالبصرة ، بل كان يرسل الوفود من أصحابه إلى جميع الجهات لهذا الغرض . وهكذا قامت ضجة عالية بين الفرق الدينية والاجتماعية ، واشتد النزاع بينها ، وشاعت أساليب المساجلة والنقاش ، وكثرت الفرق كثرة يضيق المقام بذكرها كلها ، وفيما ذكرناه منها كفاية .

تلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية فى عهد الجاحظ : تعدُّد فى العناصر جرَّ انحطاطاً فى الأخلاق ؛ واقتصاديات واسعة أدت إلى الترف فى المعيشة ، ولهو زاده التسرى والرقيق إيغالا فى الفسق ، وزاد الحياة الفنية سعة وانطلاقاً ، كما بعث النفوس العالية إلى الأشياء والثورة على الفساد الشائع وإلى الزهد فى الفانيات ؛ وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة .

٣ ــ البيئة الثقافية

كانت البيئة الثقافية من أقوى العوامل فى النهضة العباسية إذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية فى نواحيها المتعددة ويمدونها بمالهم وجاههم . وقد بالغوا

---

(١) « الدهرية » : مذهب من يقولون بقدم العالم وقدم الدهر وتدبيره للعالم وتأثيره فيه وقد أشير إليهم فى القرآن الكريم: « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . وجاء ذكر مذهبهم فى الشعر أيضاً على حد قول الشاعر :

الدهر أبلانى وما أبليته والدهـــر غيرنى وما يتغير

(٢) « المرجئة » : فرقة من المتكلمين اختلف فى سبب تسميتهم كذلك فقيل لقولهم بتأخير العمل عن الإيمان ، فلا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل سميت المرجئة مرجئة لأنهم يرجئون أمر أهل الكبائر إلى الله تعالى .

فى إكرام الأدباء فجالسوهم ، وولوهم أحياناً المناصب العالية . ثم حذا الأمراء والوزراء حذو الخلفاء فى أكبر مدن الدولة ، وكانوا يتنافسون فى ذلك كما يتنافسون فى فتح دور العلم . وظهر فى الجيل الجديد ميل شديد إلى الحياة العلمية ، ولا عجب فى ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من نماذج مدنيات واختلاط حضارات ، ووعى عام أرهفه ما ناله القوم من ثقافات الشعوب المتمدنة .

أما الثقافات التى كانت شائعة فى تلك الأيام والتى كان لها أثر كبير فى الأدب فهى ثلاث : الثقافة العربية الخالصة التى تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وما إلى ذلك[١] ، اعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها . ثم الثقافة اليونانية ، وتليها الثقافة الشرقية . ولقد وصلت علوم اليونان وآدابهم إلى الشرق من عهد فتوحات الإسكندر ، فنشر اليونان فى الشرق فلسفتهم وطريقهم وفلكهم[٢] وذاعت ثقافتهم أيضاً على يد الفرس . أما الثقافة الشرقية فهى ثقافة معقدة وهى التى نجدها عند الفرس والهنود والأمم السامية التى كانت منتشرة فى العراق ؛ وقد وصلت الثقافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة إلى بغداد واشتغال الوزراء والكتّاب الفرس بالعربية . وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة التجارة والفتوحات التى شملت قسما كبيراً من الهند ، وبانضمام بعض الهنود إلى الإسلام ، وكان منهم شعراء وعلماء بالعربية كأبى عطاء السندى الشاعر ، وابن الأعرابى[٣] . وكان الفرس القناة الثانية التى جرت ثقافة الهند إلى العرب .

---

(١) طالع قسم المنتخبات ص ٥٨ – ٩٥ .

(٢) طالع ص ٥٤ .

(٣) ابن الأعرابى : هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى أبو عبدالله (١٥٠–٢٣١ هـ) راوية ، ناسب ، علامة باللغة ، من أهل الكوفة . كان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان ، كان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب ، ولم ير أحد فى علم الشعر أغزر منه . مات بسامراء وله تصانيف كثيرة .

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمي فى ذلك العصر ، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . وكان لا بد للرجل المستنير الذى يعمل فى مناصب الدولة إذ ذاك ، ويقوم فى الأمة مقام الرجل القائد ، من أن يأخذ بحظ من هذه الثقافات جميعاً .

ويرجع انتشار تلك الثقافات فى البلاد إلى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها . فمدارس جُنْدَيْسابور والرُّها ونَصِيبين وحرَّان كانت تنشر الثقافة اليونانية ، ومدرستا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية . وكان فى حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت فى الدراسات اليونانية ، من علمية وأدبية ، أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزاً مهمًّا للثقافة اليونانية ، ونالت شهرة فائقة فى الطب . وكانت هذه المدارس كلها منارات إشعاع فى جميع العالم العربى .

وكانت حركة النقل والترجمة[1] والنسخ هى القناة الكبرى التى جرت جميع العلوم القديمة إلى الدولة العباسية ، كما كانت المطبعة الحية هى التى نشرت تلك العلوم فى جميع البلاد وجعلتها فى متناول الجميع . وقد ساعد الخلفاء وأولو الأمر تلك الحركة المباركة فأتت بأطيب الأثمار ؛ وإذا بأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينس وغيرهم ينطقون بلغة العرب ؛ وإذا كتاباتهم فى أيدى الكثيرين توقد فى العقول نار نهضة مثمرة . واشتهر من النقلة آل بُخْتَيْشوع ، وآل حُنَين ، وآل ما سَرْجويه ، وآل نوبخت ، وغيرهم كثيرون ممن كان لهم فضل كبير على العلم وأهله. وقد اعتمد العرب فى الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان ، وفى النجوم والسِّيَر والآداب والتاريخ والحِكَم على الفرس ، واقتبسوا من الهند طبها والعقاقير والحساب والنجوم والأقاصيص والموسيقى ، ومن الأنباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم ، ومن المصريين الكيمياء

(١) طالع المنتخبات ص ٥٤ .

والتشريح . ومما يؤسف عليه أن الحركة العلمية العباسية لم تستغل الأدب اليونانى استغلالا يذكر كما استغلت العلم اليونانى والفلسفة اليونانية ؛ فلم تتعرض لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ، ولذلك أسباب يضيق عن ذكرها المقام[١] .

انتشرت الثقافات الأجنبية المختلفة فى العالم العربى ، وكان لكل ثقافة نزعة خاصة . أما العقل اليونانى فيال إلى فلسفة التعليل والتحليل ، ميال إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، ميال إلى التعمق والعلم . فكان من البواعث الكبرى على إحلال العقل محلاً عالياً عند العرب ، فى ذلك العهد وعلى التصنيف والاشتغال بالعلوم . وأما العقل الهندى فهو ميال إلى التأمل ، والفكر الهندى هو من ثم تأملى شعرى أكثر مما هو علمى ، هو فكر تصويرى خيالى تمثيلى ، شديد الاتصال بالعاطفة ؛ وعاطفة الزهد والتصوف عند الهنود قوية لها أثر كبير فى حياتهم . فكان العقل الهندى من البواعث الكبرى على الحكمة وشعاب الزهد والقصص عند العرب . فى حين كان العقل الفارسى وعاء حوى العلم القديم كله تقريباً ، فكان مؤلفاً من عنصر فارسى وعنصر يونانى وعنصر هندى . والأثر الهندى فى الثقافة الفارسية أوسع فى الأثر اليونانى . إلا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة . فكان العقل الفارسى من الأسباب التى أشاعت الزخرف والتفخيم والإطناب فى الكلام والكتابة ، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها .

تلك كانت البيئة الثقافية فى عهد الجاحظ وتلك كانت الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة ، وفوران فى كل الحقول ، ومذاهب وفروع فى المجتمع والسياسة والدين والعلوم ، وتبسط فى كل شىء ، وتداخل وتنافر . ولقد عاش الجاحظ فى تلك البيئات مصوراً ومؤرخاً ، يحيا ويراقب ، يختبر وينظر ، يمتزج وينعزل ، وهكذا كان العصر كله مصوَّراً فى ذاته وفى كتبه ، تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات ، فكان بذلك علَماً من أعلام التاريخ والأدب وركناً من أركان العلم والتحرِّى .

(١) طالع كتابنا « تاريخ الأدب العربى » ص ٣٥٦ .